﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التّوبة: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الحلِفُ بالكذب والافـــتراء، يلائمُه التّقريعِ والتّوبيخِ الوارد في الآية

هذه الآيةُ الكريمةُ شديدةُ الارتباطِ بالّتي قبْلَها؛ لأنّ هذه تقريعٌ وتوبيخٌ للمنافقين الذين يحلِفون كذِبًا لإرضاء النّاسِ، وهو ما فضحَتْه الآيةُ السّابقةُ من أمْرِ المنافقين، قال ابنُ عاشورٍ: "هَذِهِ الجُمْلَةُ تَتَنَزَّلُ مِنْ جُمْلَةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مَنْزِلَةَ التَّعْلِيلِ"، والتّعليلُ شديدُ الارْتباطِ وثيقُ المُناسبةِ بالمُعلَّلِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَادِدِ﴾: "الحدُّ: الحاجزُ بين الشّيئين الذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخَر، يقال: حَدَدْتُ كذا: جعلتُ له حدًّا يُميّزُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 5]، أي: يمانِعون، فذلك إمّا اعتبارًا بالمُمانعةِ وإمّا باستعمالِ الحديدِ، والحديدُ معروفٌ"[1]، و"المُحَادَّةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الحَدِّ وَهُوَ طَرَفُ الشَّيْءِ، كَالمُشَاقَّةِ مِنَ الشِّقِّ، وَهُوَ بِالكَسْرِ: الجَانِبُ، وَنِصْفُ الشَّيْءِ المُنْشَقِّ مِنْهُ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى المُعَادَاةِ مِنَ العُدْوَةِ وَهِيَ بِالضَّمِّ جَانِبُ الوَادِي؛ لِأَنَّ العَدُوَّ يَكُونُ فِي غَايَةِ البُعْدِ عَمَّنْ يُعَادِيهِ عَدَاءَ البُغْضِ وَالشَّنَآنِ، بِحَيْثُ لَا يَتَزَاوَرَانِ وَلَا يَتَعَاوَنَانِ، فَشُبِّهَ بِمَنْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي حَدٍّ وَشِقٍّ وَعُدْوَةٍ، كَمَا يُقَالُ: هُمَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، وَكَذَلِكَ المُنَافِقُونَ يَكُونُونَ فِي الحَدِّ وَالجَانِبِ المُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ وَالرَّسُولُ لِأُمَّتِهِ مِنَ الحَقِّ وَالخَيْرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ"[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (حدّ).

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.

و"المُحَادَّةُ: المُخَالَفَةُ، وَمَنْعُ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ"[1]، و"حادَّه: غاضَبه وعصاه، عاداه وخالَفه ومنه قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾"[2]، فَحَادَّهُ: "شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ، وَكَانَ فِي حَدٍّ وَاللّٰه وَرَسُولُهُ فِي حدٍّ".

2) ﴿جَهَنَّمَ﴾: "جَهَنَّمُ: من أسماءِ النّارِ التي يُعذّبُ بها الله تعالى عبادَه، ولا يجري للمعرفة والتأنيث. ويقال هو فارسيٌّ معربٌ"[3]، و"جَهَنَّمُ - كَ: عَمَلَّسٍ - أَي: بَعِيدَةُ القَعْرِ"[4]، والعياذُ بالله تعالى منها.

3) ﴿خَٰلِدًا﴾: "الخُلُودُ: هو تَبرّي الشّيءِ من اعتراضِ الفسادِ، وبقاؤُه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التّغييرُ والفسادُ تصفُه العربُ بالخلود، ويقال: خَلَدَ يَخْلُدُ خُلُودًا، والخُلُودُ في الجنّة: بقاءُ الأشياءِ على الحالةِ التي عليها من غير اعتراضِ الفسَادِ عليها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: 82]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 39]"[5].

4) ﴿ٱلْخِزْىُ﴾: "خَزِيَ الرّجلُ: لحقَه انكسارٌ، إمّا من نفْسِه، وإمّا من غيرِه. فالذي يَلحَقُه من نفسِه هو الحياءُ المُفرطُ، ومصدرُه الخَزَايَةُ، ورجلٌ خَزْيَان، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُه خَزَايَا. وفي الحديثِ: «اللهمّ احْشُرنا غيرَ خزايا ولا نادمين»[6]، والذي يلحقُه من غيره يقال: هو ضربٌ منَ الاسْتخفافِ، ومصدرُه الخِزْيُ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [المائدة: 33]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: 27]، وقولُهم: ذلّ وهان، متى كان من الإنسان نفسِه يقال له: الهَوْنُ والذُّلُّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيره يقال له: الهُونُ، والهَوَانُ، والذُّلُّ، ويكونُ مذمومًا"[7].

5) ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: "عَظُمَ الشّيءُ أصلُه: كَبُر عظْمُه، ثم استُعِير لِكلّ كبيرٍ، فأُجرِي مَجراه - محسوسًا كان أو معقولًا، عيْنًا كان أو معنى - قال الله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر:

(1) الرازي، مختار الصحاح: (حدد).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدد).
(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (جهنم).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (جهنم).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلد).
(6) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (15492)، بلفظ: «وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ».
(7) الرّاغب، المفردات: (خزي).

13]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧﴾ [ص: 67]، والعظيمُ إذا استُعمِل في الأعيان فأصلُه: أنْ يُقالَ في الأجزاءِ المتَّصِلةِ، والكثيرُ يُقالُ في المُنْفَصِلةِ، ثمّ قد يُقالُ في المنفصِلِ: عظيمٌ"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هَذِهِ الآيَةِ بيانٌ لعقوبة المُنَافِقِينَ، والمعنى: "أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ أَنَّ الشَّأْنَ وَالأَمْرَ الثَّابِتَ الحَقَّ هُوَ: أَنَّ مَنْ يُعَادِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ، أَوْ بِلَمْزِ الرَّسُولِ فِي أَعْمَالِهِ كَقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ أَوْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ أُذُنٌ - فَجَزَاؤُهُ أَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خَالِدًا فِيهَا لَا مُخْرِجَ لَهُ مِنْهَا، ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ. أَيْ: ذَلِكَ الصَّلْيُ الأَبَدِيُّ هُوَ الذُّلُّ وَالنَّكَالُ العَظِيمُ، الَّذِي يَتَضَاءَلُ دُونَهُ كُلُّ خِزْيٍ وَذُلٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا"[2]، "وكان النّبيُّ ﷺ طالَ مُكْثُه فيهم، وكثُر تحذيرُه إياهم عنِ المعصيةِ، وترغيبُه في الطّاعةِ"[3] فلم يَنتفعُوا بذلك.

مـن حـادَّ اللـه ورسُولَه، فمآلُه جـهـنَّـم، مع الخِزيِ العظيمِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾:

الآيةُ السّابقةُ كانت جُملةً خبريّةً، تكشفُ للمسلمين حقيقةَ أنَّ المُنافقين يحلفون لكم ليرضوكم، ثم جاءت هذه الآيةُ إنشائيةً استفهاميّةً تُنكرُ على المنافقين تلك الجريمةَ المُركَّبَةَ منَ الحَلِفِ الكاذبِ، وابتغاءِ رضَا غيرِ اللّه تعالى بهذا الحَلِفِ.

زَجْـرُ المُنافِقِين عـن سُلوكِهم المائل، في الحَلِفِ بالباطل

وقدِ اقتضَى ذلك التّغايُرُ بين الأسلُوبَين الفصْلَ بينَهما كما جاءتِ التِّلاوةُ الكريمةُ، ويُعرف ذلك بكمالِ الانقطاعِ بين الجُملتَين، وهو انقطاعٌ في الظّاهر فقط؛ لأنّ الآيتين مُتواثقتان في الهدف،

(1) الرّاغب، المفردات: (عظم).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/496.

مُتعاضدَتان على تحقيقِه، والهدفُ زَجْرُ المنافقين عن هذا السّلوكِ المُشين لينتهُوا، وقد جاءت هذه الآيةُ - كما سبقَ عنِ ابنِ عاشورٍ - تعليلًا للآيةِ السّابقةِ، فصار بينَهما بهذا الاعتبارِ كمالُ اتِّصالٍ، وسُبحانَ من يجمعُ كلامَه بين الكمالَيْن.

الغَرَضُ منَ التَّعبيرِ الإنشائيِّ بطريقِ الاسْتِفهامِ المجازيّ:

التّسجيلُ عليهم إيقاظٌ لهم من الغفلة، وتعليمهم من الجهالة

كان بالإمكانِ صياغةُ الفكرةِ في صُورةٍ خبريةٍ مثل: إنّه من يحادِدِ اللّهَ ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنّمَ؛ فيطَّردُ الأسلوبُ منَ الآيةِ الخبريّةِ السّابقةِ إلى هذه الآية. غيرَ أنَّ التَّحوُّلَ بالأسلوبِ إلى الاستفهامِ يُوقِظُ المُتلقّي؛ فيجعلُه شريكًا في الكلام؛ لأنّه أسلوبٌ طلَبيٌّ يطلبُ إليه تنفيذَ شيءٍ، حتى، وإنْ خرجَ عن غَرَضِ الاسْتفهامِ الحقيقيِّ إلى غرضٍ آخرَ كما هنا؛ إذ إنَّ غرَضَ الاسْتفهام هنا مَجازيٌّ لا يَطلبُ جوابًا بتحصيلِ صُورةِ المُستفْهَمِ عنه؛ لأنَّ السّائلَ هنا تعالى لا تخفَى عليه خافيةٌ فيَستفهمُ، فالغَرضُ "التّوبيخُ على ما أقْدمُوا عليه منَ العظيمةِ مع علْمِهم بما سمِعُوا منَ الرّسولِ ﷺ بوخَامةِ عاقبتِها"[1] لِعدمِ جدوَى العلْمِ فيهم، والتقريرُ لهم بالعلْمِ بعقوبةِ مَن يُحادِدُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ، وهم أهلُ كتابٍ يعلمون عقوبتَه لا شكَّ، إن لم يكن من ديانتِهم فمِن ديانةِ النّبيّ ﷺ الذي مكث فيهم يدعُوهم ويعلّمُهم عددَ سنينَ، والمُرادُ توبيخُ المنافقين الّذين يحلِفون كذِباً لإرضاءِ النّاس في مغضبةِ اللّه تعالى، والمُسْتَنْكَرُ عليهم أهلُ كتابٍ لديهم عِلمٌ بِعُقوبة ذلك، وهم أعلمُ - حينئذٍ - بأنَّ مَن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ فإنّ مأواه جهنّم خالداً فيها، فالاستفهامُ يُلزمُهم الحُجّةَ، ويُحقّقُ عليهم جريمتَهم، ويُوقظُها في نفوسِهم، ويَستدعِي عِلْمَهم الّذي صار وَبالًا عليهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/318، وخان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/335.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُحاددَةِ في الفعل: ﴿يُحَادِدِ﴾:

المنافقون يُواجهون الدِّينَ والأمّةَ، بكلِّ حدَّةٍ وشِدَّةٍ

معنى يُحادِدُهُ أي: "يُجانِبُه ويُعادِيه، وحقيقتُه أنه يُقال: حادَّ فلانٌ فلاناً، أي: صار في حَدٍّ غيرِ حَدِّه"[1]، ويعني أيضًا: "مجاوزةَ حدودِها"[2]، فمِن إشاراتِ مادّةِ (حادَدَ) - وهي مصوِّرةٌ بطبْعِها اللُّغويِّ المجرَّدِ - أنّها تُقيمُ في النّفسِ صورةَ حَدٍّ فاصلٍ بين جهتَيْن، وتجعلُ المنافقين في الجهةِ المُعاديةِ لدينِ الله تعالى ولرسولِه ﷺ، وتجاوُزِهم تلك الحدودَ. إلى ما في مادّةِ (حادد) من معنى الحدِّ الصّارمِ، كما يتجلَّى في وَصِيَّةِ الرّسولِ الله ﷺ في مُدْيَةِ التَّذْكِيَة: «وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[3].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ، في لفظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

لا أضرَّ على الأمّةِ والدِّين، من خيانةِ المُنافقين المرجفين

ومن إشاراتِ إيثارِ لفْظِ المُحاددَةِ أيضًا أنّها: "مأخوذٌ من حديدِ السّلاحِ لاستعمالِه في المُعاداةِ"[4]، ففيها مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الآليّةُ، وهي بهذا المفهومِ تستجمعُ صُورتَين: اللُّغويّةَ المُجرّدةَ والبيانيّةَ المُصوِّرةَ، وهكذا المنافقون يَحتدُّون ضِدَّ الدِّين، ويُعادونَه بحدٍّ بَتّارٍ.. ولا يكونُ شيءٌ أحدَّ وأقطعَ للدِّين والأمّةِ ولا أضرَّ عليهما من خيانةِ المُنافقين، وتدبيرِهم بِخُبْثٍ خَفِيٍّ لا يَفْطِنُ له المسلمون، والمسلمون بِخاصَّةٍ لِبَرَاءَةِ نفوسِهم، وغفْلتِهم عن نفاقٍ لَمْ يُجرِّبوه.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

المنافقُون بمنأى عن حدِّ الرِّسل الكرام، وهم منهم برآء

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ اسْتعارةٌ؛ إذ إنّ المُحاددَةَ على الحقيقةِ هي التّقارُبُ بالحدودِ، وذلك من صفاتِ الأجسامِ ذواتِ الحدودِ والأقطارِ، فالمرادُ بالمُحاددَةِ هنا كونُ الإنسانِ

(1) مكّي، الهداية الى بلوغ النهاية: 4/3055.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.
(3) مسلم، الجامع الصحيح، بابُ الأمر بإحسان الذّبح والقتل، وتحديد الشّفرة، الحديث رقم: (1955).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.

في غير الحدِّ الّذي فيه رُسُلُ الله تعالى؛ فكأنّه في حدٍّ ورسلُ الله في حدٍّ آخرَ[1].

سِرُّ التّعْبيرِ بضَميرِ القِصَّةِ قبْلَ بيانِها:

التّعظيمُ والتّهويلُ، بيانٌ لشأنِ المُعظَّمِ

ضميرُ القصّةِ هنا في كلمةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ من جُملةِ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ وإلى هنا ليس للضّميرِ المُتّصلِ بِـ (أنّ) مَرْجعٌ يعودُ عليه، ممّا يَستفزُّ ذهنَ تالي الذِّكرِ الحكيمِ وذهنَ مُتَلَقِّيه ومُسْتمعِيه، ويَستثيرُه نحو معرفةِ هذا المجهولِ الذي يتحدّثُ عنه قبْلَ تحديدِه ماذا يكونُ؟ وهذا من لَطائفِه؛ "وفائدُتُه إلى ذلك مَزيدُ التَّعظيمِ والتَّهويلِ" للشّأنِ المقصودِ والقصّةِ قبْلَ إيرادِها، ولذلك يُؤْتَى به في المَقاماتِ المُهمّةِ، بلِ المُهمَّةِ جدًّا، مِثلِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، فلا أهمَّ من قضيّةِ التّوحيدِ، التي من أجلِها خلَقَ اللهُ تعالى الثَّقَلين المُكلَّفين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وكذلك الأمرُ هنا خطيرٌ؛ فهو مُعاداةٌ ومُحادَّةٌ لدِين الله تعالى ولرسولِ الله ﷺ.

سِرُّ خطابِ المسلمين، بوعيدِ المنافقين دونَهم، وهُمْ بين أَظْهُرِهم:

المنافقون جديرون بالتَّجاهُل منَ المُسلمين دوما

هذا الاسْتفهامُ الإنكاريُّ التّوبيخيُّ حقُّه أن يُصَبَّ فوق رؤوسِ المنافقين خطابًا لهم مُباشِرًا، وبخاصّةٍ أنّهم مُنْدَسُّون بين المسلمين، لكنَّ الذّكرَ الحكيمَ يَحُطُّ من شأنِهم بصرْفِ الخطابِ عنهم وإنْ كان وعيدًا ويَعتبرُهم غائبين؛ إبعادًا لهم عن ساحةِ الطُّهْرِ، وإقصاءً لهم إلى حيث يَستحقّون هنالك في أودية النّفاقِ المَقيتةِ، ولقد ظلَّ هذا النّمَطُ المُخْزِي للمنافقين - من أهل الكتاب - في تراكيبِ السّورةِ الكريمةِ - التي تُسَمَّى سورةَ المنافقين الكبرى[2] - قبل هذه

(1) محمد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/494.

(2) قال الثعلبي: "كانت تسمى هذه السورة الفاضحة والمثيرة والمبعثرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال الحسن: كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة، حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته". ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 5/64.

الآيةِ الكريمةِ بصفحاتٍ إلى نهاية السّورةِ الكريمةِ - في حوالي اثنتي عشرةَ صفحةً، كلُّها حَديثًا مُوجَّهًا إلى الرّسولِ ﷺ وصحابتِه الأخيارِ ما بين توجيهٍ وإرشادٍ، وما بين أمرٍ ونهْيٍ، وما بين تعريضٍ بالمنافقين وتصريحٍ بمخازِيهِمُ الشّنيعةِ دون توجيهِ الخطاب لهم، وفي ذلك التّجاهُلِ لشأنِهم وَجْهٌ تناسُبٍ بين طيِّهم خُبْثَهم وعقوبتِهم العاجلةِ بإهمالِهم طيَّ النّسيانِ؛ ولا شكَّ أنَّ لهذا الإبعادِ أثرًا نفسيًّا يذبحُهم، وبخاصّةٍ وهم يَرون أنفُسَهم هم النّاسَ، وأنّهم أهلُ العلْمِ وأهلُ الكتابِ المُتميّزون بين أهل الدّين الجديدِ الأُمِّيِّين البُدَاةِ، ولذلك يقولُ القُشَيريُّ: "من كفر باللّه وأشرك في توحيده بإثبات موهومٍ اسْتَحقَّ ما هو حقٌّ للّه؛ تَعَجَّل عقوبتَه في الحال بالفُرْقَةِ، وفي المالِ بالخلودِ في الحُرْقَة"[1]، "وقُرئ (أَلم تعلموا) بالتّاء على الالتفاتِ؛ لِزيادة التّقريعِ والتّوبيخِ إذا كان الخطابُ للمنافقين لا للمؤمنين"[2]، وكلُّهم - طبعًا - عربٌ يفهمون مراميَ الكلامِ، ويقفون فيه بالفِطرةِ على أضعافِ ما نقفُ نحن بالتّعلُّمِ، و"(أَلم تعلم) خِطابٌ لِمن عَلِم شيئًا ثمّ نَسِيَه، أو أنكره، فيقال له: ألم تعلم أنّه كان كذا وكذا؟ ولمَّا طال مُكْثُ رسولِ اللّه ﷺ بين أظهُرِ المؤمنين والمنافقين وعلَّمَهم مِن أحكام الدِّين ما يحتاجون إليه؛ خاطبَ المُنافقين بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾"[3].

بَلاغةُ التَّعريفِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

في التَّعريفِ بالاسْم الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فضيلةٌ بلاغيّةٌ لا يُتيحُها غيرُه من أدواتِ التّعريفِ، هي كونُه يَفتحُ بابَ التّركيبِ لصياغةِ جُملةٍ جديدةٍ ذاتِ تفاريعَ دلاليةٍ ثَريّةٍ، تَطوي إشاراتٍ معنويةً فاعلةً في تعزيز الأغراض،

التّعبيرُ بالموصولِ، مفْضٍ إلى أنّ المحادَّةَ هي مَحلُّ الجُرْمِ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/42.
(2) الآلوسي روح المعاني: 5/318.
(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/378.

فالموصولُ هنا أتاحَ صِيغةَ المضارعةِ بعطائِها الحيِّ المُتجدِّدِ، الذي يكشفُ عن تتابُعِ المُعاداةِ وتَجدُّدِها منَ المنافقين المُبغِضين لدينِ اللّه تعالى ولرسولِه الكريمِ ﷺ ولصحْبِه الأخيارِ. وقد امتدَّت منهم تلك المُحادَدَةُ إلى سنواتٍ حتى تَطهَّرت منهمُ المدينةُ المنوّرةُ، واستتبَّ لها النّظامُ والأمانُ، كما أتاح الموصولُ تعميمَ الحُكمِ: ﴿مَن يُحَادِدِ﴾، وتثبيتَه لكلِّ مَن يستحقُّه، كذلك هيَّأ ذكرُ الموصولِ لصِيغةِ المضارعِ التي تستحضرُ علمَ المنافقين بأنَّ محادَّةَ دينِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ تُوجبُ لهم نارَ جهنّمَ، وما تَستلزمُه منَ الخِزي العظيمِ.

وَجْهُ فَكِّ الإدغامِ في ﴿يُحَادِدِ﴾:

فـكُّ الإدغـامِ يُناسبُ تعديدَ المُنافقين

في فكِّ إدغامِ الدّالِ المُشدّدةِ في ﴿يُحَادِدِ﴾ تَناسُبٌ جَليٌّ لِتعديدِ المنافقين وتَكريرِهم أيْمانَهم الكاذبةَ، ويُؤازرُ صِيغةَ المضارعةِ التي صُبَّت فيها مادّةُ المُحاددةِ. "وَلَمْ يُدْغَمَا لِأَنَّهُ وَقَعَ مَجْزُومًا، فَجَازَ فِيهِ الفَكُّ وَالإِدْغَامُ، وَالفَكُّ أَشْهَرُ وَأَكْثَرُ فِي القُرْآنِ، وَهُوَ لُغَةُ أَهْلِ الحِجَازِ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الإِدْغَامُ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:4] فِي قِرَاءَةِ جَمِيعِ العَشَرَةِ وَهُوَ لُغَةُ تَمِيمٍ"[1].

براعةُ حذْفِ المضافِ، وإقامةِ المُضاف إليه مَقامَه:

معـاداةُ دينِ اللـه، ورسولِه المبلّغِ الأمـين، مُعاداةٌ لله ربّ العالمين

لا أحدَ يَجْرؤُ على أن يُحادِدَ اللّه تعالى، أو أنْ يحاددَ عبادَ اللّه، ومن يحادُّهم في المدينةِ المنوّرةِ - مثلًا - «أَذَابَهُ اللّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ، أَوْ ذَوْبَ المِلْحِ فِي المَاءِ»[2]، فلا يقدرُ أحدٌ على مُحادّةِ اللّه تعالى، غيرَ أنّ إيقاعَ الفعلِ ﴿يُحَادِدِ﴾ على لفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ - وهو في الحقيقةِ إنّما يُوقَعُ على دينِ اللّه تعالى وعلى رسولِ اللّه ﷺ وعلى عبادِ اللّه - يَنْقُلُ القضيّةَ إلى أفُقٍ لا طاقةَ لأحدٍ به؛ فناسبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/246.

(2) مسلم، صحيح مسلم، بابُ فضل المدينة...، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حُدُود حرمها، الحديث رقم: (3163).

حذْفُ المُسنَد إليه وربطُ المُحادّةِ باللّه تعالى مباشرةَ فظاعةِ الجُرْم؛ لأنّ دينَ اللّه تعالى ولأنّ رسولَ اللّه ﷺ ولأنّ عبادَ اللّه أجمعين إنّما يَستمدُّون خَطَرَ الاعتداءِ عليهم من إضافتِهم ونِسْبَتِهم إلى اللّه تعالى؛ فكان في حذْفِ المضاف وإقامةِ المُضاف إليه مقامَه تفظيعٌ لهذا الصّنيعِ العظيم يحملُ على مُجانبته والحذَرِ منه.

بَلاغةُ عطْفِ الرّسولِ ﷺ على لفْظِ الجلالةِ:

العطفُ في جُملةِ: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من تكريم اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وقد تكرّرَ في الذّكرِ الحكيمِ حوالَيْ ثمانينَ مرّةً، وفي ذلك العطفِ - فضلًا عن كونِه تَشريفًا وتكريمًا لرسولِ اللّه ﷺ - إضفاءٌ للهيْبةِ على الرّسولِ ﷺ، وابرازٌ هيبَتِه ﷺ يكونُ في كلِّ مقامٍ بحسبِه، فالهيْبةُ هنا وعيديَّةٌ تهديديّةٌ، ومثلُه قولَه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: 279]. وقد تكونُ الهيبةُ تكريميةً كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 29]، ولو ذُكِرَ المضافُ فكان السّياقُ: من يحادِدْ دينَ اللّه، أو: من يحادِدِ الدّينَ والرّسولَ لَافْتُقِدَتْ تلك الهيبةُ، مع كونِه رسولًا مُكرَّمًا، لكنّها تَعْظُمُ حين يُحيطُ ذِكْرُ اللّه تعالى باسْمِ رسولِه ﷺ من جهتَيْه: مرَّةً قبْلَه بالاسْمِ الظّاهرِ ﴿ٱللَّهَ﴾، ومرّةً بعدَه بالضّميرِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، وكأنّها الحصانةُ والأمانُ يَحُوطانِه ﷺ ويَشملانِه ويُضْفيانِ عليه المَهابةَ ﷺ.

اللّه تعالى يحفظُ رسولَه الخاتم، ويُحيطُه بالمَهابةِ والتّكريمِ

دَلالةُ (الفاءِ) الدّاخلة على أداة التّوكيد ﴿فَأَنَّ﴾:

العطفُ بالفاء في ﴿فَأَنَّ﴾ للإيذان بأنّ ما بعدَها مُسبّبٌ عمّا قبْلَها، فالخلودُ في نارِ جهنّمَ اسْتحقَّ عليهم بما قدّمُوه من نفاقٍ ومُحادّةٍ للّه ورسولِه[1].

استحقاقُ الخُلود في النّارِ، بما كسبَتْه أيْدِي المنافقين والكفّار

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

من بَلاغةِ التّوكيدِ في الجُملةِ المصدّرة بلفظ ﴿فَأَنَّ﴾:

قالُوا هنا: "لَمَّا طالَ الكلامُ أُعيدَ ﴿فَأَنَّ﴾ ليكونَ أوْكدَ، ويجوزُ كَسْرُ (فإنّ) على الاسْتِئناف بعدَ الفاء"[1]، على أنَّه منَ المعلوم أنّ "البُعْدَ لَا يَمْنَعُ مِنْ صِحَّةِ العَطْفِ"[2]، وعليه فإنّ النَّظْمَ الكريمَ قد آثرَ تَكرارَ التَّوكيدِ ليتكاثرَ في العبارةِ، ولِتتآزرَ عناصرُه فيَتقرَّرَ الحُكمُ على المنافقين، ولعلَّه يكونُ أجْدَى في إزاحةِ الخُبْثِ من نفوسِهم؛ فتستقرُّ حياةُ المسلمين، وتطهُرُ الأمَّةُ من شرورِهم، ولكنْ هيهاتَ! وبهذا يكشِفُ اللّه تعالى للأمّةِ تَمَكُّنَ النّفاقِ من نفوسِ المنافقين برغْمِ تكاثُفِ عناصرِ التّوكيدِ في معْرضِ تهديدِهم وزجْرِهم. وتوكيدُ الخبرِ بـ (أنّ) واسْميّةِ الجملة؛ لأنَّ المنافقين مع علْمِهم بهذه الحقيقةِ نُزّلُوا منزلةَ من يجهلُها ويُنكرُها لعدَمِ جَرْيِهم في الاعتقادِ والسّلوكِ وَفْقَ ما يَقتضِيه علْمُهم[3].

النّفاقُ متأصّلٌ في المنافقين، فنُزّلُوا مَنزلةَ من يجْهلُ الحقائقَ

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، التّقديمُ هنا يَقْضِي في ظاهرِه باختصاصِ هذا الذي يُحادِدُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ بالنَّارِ، وقَصْرِها عليه دونَ سِواه، وهذا صحيحٌ إنْ مات كافرًا ولم يَتُبْ من نفاقِه، وأصلُ التّركيبِ لُغويًّا: فإنَّ نارَ جهنّم له؛ أي: مُستحَقّةٌ ثابتةٌ مقطوعٌ له بها، غيرَ أنَّ النَّظْمَ الحكيمَ تصرَّف في ترتيب تلك العناصرِ بما يَدْعمُ الغَرضَ؛ فقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾، وكأنَّ نارَ جهنّمَ إنّما خُلقت له وحْدَه، وخُصَّتْ به لا يُشاركُه فيها غيره.

الحُكْمُ على المُنافقين بالنّارِ، مُحَقَّقٌ لا شكَّ فيه

والقرآنُ الكريمُ يقولُ صراحةً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، لكنْ باعتبارِ أنَّ النّارَ أيضًا عقوبةُ

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 10/531.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/91.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

تَهْذيبٍ للمُوحِّدِ العاصِي - واللّهَ تعالى نسألُ العفْوَ والمغفرةَ لنا جميعًا - يكونُ عطاءُ التّقديمِ توكيدَ تعذيبِ المُنافقِ، والقطعَ له بذلك بِغَضِّ النَّظرِ عن غيرِه، وأنّه لن ينجُوَ منَ النّار بحال. وقد بدأَ اللّه تعالى بالمنافقين في الحُكْمِ بالنّار في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140] والعِياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

وجْهُ المناسبةِ بين لفْظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾، وجريمةِ النِّفاقِ ومُقترفِها:

النّفاقُ مَخفيٌّ في سُوَيْداءِ القلْبِ فيَستحقُّ عقوبةً في قاعِ النّارِ

قال ابنُ عاشور: "وَجَهَنَّم عَلَمٌ عَلَى دَارِ العِقَابِ المُوقَدَةِ نَارًا... مُشْتَقٌّ مِنَ الجَهْمِ وَهُوَ الكَرَاهِيَةُ"(1)، و"أَهْلُ اللُّغَةِ يَحْكُونَ عَنِ العَرَبِ أَنَّ البِئْرَ البَعِيدَةَ القَعْرِ تُسَمَّى الجِهِنَّامَ عِنْدَهُمْ، فَجَازَ فِي جَهَنَّمَ أَنْ تَكُونَ مَأْخُوذَةً مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، ومعنى بُعْدِ قَعْرِهَا: أَنَّهُ لَا آخِرَ لِعَذَابِهَا"(2).

فإيثارُ النّظْمِ الكريمِ هنا اسْمَ ﴿جَهَنَّمَ﴾ - دونَ غيرِه من أسماءِ النّارِ - يُحقِّقُ المناسبةَ بين طبيعةِ الجريمةِ المُستكِنّةِ في قلوبِ المنافقين وبين تَغْييبِهم في قاعِ الجحيم، ويتّسقُ مع ذلك تمامَ الاتّساقِ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وكذلك يُحقّقُ المُناسبةَ بين معنى الجهْمِ - وهو الكراهيةُ - وبين ذميمِ النّفاقِ الكريهِ لدى اللّه تعالى ولدَى رسولِه ﷺ ولدى المسلمين جميعًا، والعياذُ باللّه تعالى.

سِرُّ القيْدِ بالحالِ ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾:

المُنافقُ خالدٌ في نـارِ الآخِـرةِ، لا يُفارقُها قطُّ

هذا القيْدُ بالحالِ يَتّسِقُ - في دَلالةِ القطْعِ بالخُلودِ في نار جهنَّمَ للمنافقين - مع دَلالةِ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، ويُوَجِّهُ دَلالةَ تقْديمِه إلى إفادةِ القصْرِ، وأنَّ الخلودَ في نار جهنَّمَ مُختصٌّ بِمن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ؛ لأنَّ الخلودَ فيها - كما سبقَ القولُ -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/271.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/92.

يَختصُّ بالكافرِ المُعادِي لدين اللّه تعالى ولرسولِ اللّه ﷺ، لا يَتعدَّاه إلى المُوَحِّدِ العاصِي، الذي قد يُغْمسُ في النّارِ للتَّطْهيرِ لا للتَّخْليد.

نُكتةُ إفرادِ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدًا﴾:

الإفرادُ في ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدًا﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ﴾ مرادٌ به العمومُ؛ إذِ المُعوّلُ عليه في هذا المصيرِ المُؤلِمِ هو الصّفةُ، فمن تحقّقتْ فيه فهو المُتوعَّدُ بالخلودِ في نارِ جهنّم[1].

من تحقّقتْ فيه صفةُ النّفاقِ، فإنّ مصيرَه إلى النّارِ، وبئس القرار

عِلّةُ صياغةِ الحالِ ﴿خَٰلِدًا﴾ اسمَ فاعلٍ:

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ اسْمَ الفاعل ﴿خَٰلِدًا﴾ دونَ اسْمِ المفعول: مُخَلَّدًا؛ وذلك يُلْمِحُ إلى أنّ هذا المنافقَ هو من اسْتوجبَ بنفسِه لنفسِه الخلودَ في النّارِ، وأنّها لم تُفْرضْ عليه قَسْرًا من قِبَلِ اللّه تعالى؛ فلا يَتَعَلَّلَنَّ أحدٌ بأنّ الخلودَ في النّار مكتوبٌ مقدورٌ عليه، وأنّه جُبِرَ عليه جبْرًا ولا ذنْبَ له فيه، وهكذا وردَ كلُّ قيدٍ بالحال في الذّكرِ الحكيم مُشابهًا لهذا القيْدِ، جمْعًا كان أو مُفردًا، جمْعًا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ومُفردًا: ﴿خَٰلِدًا فِيهَآ﴾، وسواءً أكان هذا الحالُ من أصحاب الجنّةِ أم كان من أصحابِ النّارِ؛ وكأنّي بتلك الصِّيغةِ تُحيلُ على صاحبِها سَببيَّةَ خلودِه في النّارِ إن كان السّياقُ للتّعذيب، وتُحيلُ على صاحبِها سببيَّةَ خلودِه في الجنّةِ إن كان السّياقُ للتّكريم، فضْلًا عن دَلالتِه، أي: (اسم الفاعل: خالدا) على حالة الخلودِ، والبقاءِ الأبديِّ بما يتضمّنُه اسْمُ الفاعل من معنَى الدّوامِ التّجدُّدِيِّ، وتَجَدُّدِ الحدوثِ وتَكرارِه.

المُنافقُ هو الّذي اسْتوجبَ النّارَ بنفْسِه، ولم تُفرَضْ عليه

دَلالاتُ عَوْدِ الضّميرِ المجرورِ ﴿فِيهَآ﴾:

ضَميرُ المؤنّثِ المجرورِ في لفْظِ: ﴿فِيهَآ﴾ يُطابقُ الـ ﴿نَارَ﴾ كما يُطابقُ ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُوصَفان بالمؤنّث، قال تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: 93]، وقال اللّه تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

الهَلكةُ والضّياعُ مآلُ المنافقين، بما اقترفوا من إثم مبين

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

[الغاشية: 4]، وإمكانُ تطابُق ضميرِ المؤنّث: ﴿فِيهَآ﴾ لهذين العُنْصُرَين يَجعلُ الـ ﴿نَارَ﴾ مُستقرًّا لِخلوده كما يجعلُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مُستقرًّا لخلودِه، وذلك يَقضِي عليه بالهَلكةِ والضَّياعِ قطْعًا؛ وهذا التَّضافُرُ يتآزرُ مع بقيّةِ عناصرِ التّركيب، في تقريرِ الحُكم؛ فهو إذن من خصائصِ التّركيبِ الخادمةِ بقُوّةٍ.

بَلاغةُ الفضْلِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

تقريرُ الإهانةِ والافْتِضاحِ، جزاء نفاقهم بالغدوّ والرّواح

هذه "الجملةُ تذييلٌ لِمَا سَبقَ"[1]، فُصِلتْ عمّا قبْلَها لِما بينَهما من كمالِ اتِّصالٍ في المعنَى؛ لأنَّ معنَى الجُملةِ الثّانيّةِ منهما مُقَرِّرٌ لِمعنَى الأُولَى؛ إذِ الأُولَى تُفيدُ خُلودَ المنافقِ المُحادِدِ في نار جهنّم، والثّانيّةُ تُفيدُ أنَّ ذلك الخلودَ فيها هو الخِزيُ العظيمُ، فالتقتِ الجُملتان على تقريرِ تعذيبِه وإهانتِه وافتضاحِه، وكذلك بينَهما من وجْهٍ آخرَ كمالُ انْقطاعٍ في اللّفظ؛ إذِ الأُولَى إنشائيّةٌ نوعُها اسْتفهامٌ، والثّانيّةُ خبريّةٌ، فتباينَتا من هذا الوجْهِ فوجبَ كذلك الفصْلُ بينَهما لكمالِ الانقطاعِ.

دَلالةُ الإشارةِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ﴾:

اختصارٌ بالإشارة لِما مضَى، ومبالغة في فظاعةِ الخِزيِ وهوله

من فضائلِ اسْمِ الإشارةِ (ذا) أنّه يَجمعُ أطرافَ الحديثِ السّابقِ مهما تكاثرتْ، ويَضغطُها كلَّها في حرفين (ذا) لِيُصَبَّ عليها كلِّها الحُكمُ بالخبرِ دَفْعةً.

والذي سبقَ هنا هو تفاصيلُ وعيدِ المنافقين، والحُكمُ هو خلودُهم في نار جهنّم؛ فجاءتِ الإشارةُ لِتُلَمْلِمَ تفاصيلَ ذلك، وتُفرِغَ عليه الحُكمُ عن قُربٍ بأنّه خِزيٌ، بل ﴿ٱلْخِزْيُ﴾ المَهُولُ، والعياذُ بالله تعالى من حالِ أهلِ النّارِ. وفي ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ﴾، إشارةٌ بالبعيدِ دونَ القريبِ؛ لتهويلِ الخِزْيِ، وللإيذانِ ببُعْدِ درجتِه في الشّناعةِ والفظاعةِ، وبلوغِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/319.

الغايةَ فيهما، وقد قامَ اسْمُ الإشارةِ مَقامَ العاطفِ الرّابطِ بين جوابِ الشّرطِ المُتقدّمِ على هذه الجُملةِ وبيّنَها[1].

نكتة إيثارِ لفظ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾:

(الـخِـزْيُ) أشدُّ مـــنَ الـــذُّلِّ وأقـــسَى، وفيه معـنى الـهـوان والضّعة

"الخِزْيُ بالكَسْرِ ذُلٌّ في النَّفْسِ طَارِئٌ عَلَيْهَا فَجْأَةً لِإِهَانَةٍ لَحِقَتْهَا، أَوْ مَعَرَّةٍ صَدَرَتْ مِنْهَا، أَوْ حِيلَةٍ وَغَلَبَةٍ تَمَشَّتْ عَلَيْهَا وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ"[2]، ولمَّا كان ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ يَحملُ معنَى المَهانةِ والانْكسارِ والانقِماعِ كانتْ مادَّتُه اللّغويّةُ، مادّةً مُصَوِّرةً بطبيعتِها المجرّدةِ منَ التَّصويرِ البَيانيِّ؛ فهي تُقيمُ في النّفسِ صورةَ شخْصٍ مُنكسِرٍ مقْموعٍ؛ ولذلك كان الخِزْيُ فوقَ الذُّلِّ افتِضاحًا وهَوانًا؛ كما يقولُ صاحبُ الفُروقِ.

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾، ودلالته:

جـــزاءُ المُـنـافـقِ (الـخِـزْيُ) يـومَ القيامةِ الّذي لا يُقارَنُ

تعريفُ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ في هذا المقامِ - مقامِ مُحادَدةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - قائلٌ: إنّه أقصَى ما يُمكنُ أن يكونَ من أنواعِ الخِزْيِ والذُّلِّ والهَوانِ وأقْسَاه على النّفوسِ، وذلك هو ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ الذي يَتجرّعُه المنافقُ، والتّعريفُ يُوحِي بأنَّ خِزْيَ هؤلاء هو ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ الذي لا خِزيَ فوقَه، وأنّ أنواعَ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ كلَّها إذا قِيسَتْ به لا تُعَدُّ خِزْيًا؛ لذلك وَصفَه النّظمُ الكريمُ - هنا بخاصّةٍ - بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ كما سيأتي بيانُه قريبًا إن شاءَ اللّه تعالى.

سرُّ وصْفِ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

الحَلِفُ بالعظيم كَـــذِبًـــا، يَـجـرُّ إلى الـــخِـــزْيِ (العظيم)

وصَفَ الذّكرُ الحكيمُ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ هنا بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، ولم يرِد موصوفًا به إلّا في هذا الموضعِ؛ لأنّه المَقامُ الذي جَمعَ بين ذِكْرِ مُحادَّةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - والمُحادّةُ في الأصل عملُ الكفّارِ المُتبجِّحين

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19، ومحمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/494.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/591.

بكُفرِهم[1] – وبين الحَلِفِ كذبًا نِفاقًا للمسلمين وعدَمِ اكتراثٍ بِجلالِ اليمينِ من قِبَلِ المنافقين – وهم أهلُ كتابٍ يُفترَضُ أنّهم يعلمون خطَرَ الاسْتهانةِ بيمين اللّه تعالى – وهما أعظمُ جريمتَيْن تكونان من مخلوقٍ تجاهَ الخالقِ العظيم تعالى؛ لذلك جَمعَ النّظمُ الكريمُ لهما ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ مع وصْفِ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، ووصْفُ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ يَرِدُ في الذّكرِ الحكيمِ لِلفَوْز والنَّعيم، كما يقعُ للخزي والعذابِ، فإذا وقع للفوزِ والنّعيمِ انصرفَ إلى معنى العَظَمَةِ والجمالِ، وإذا وقع للخِزي والعذابِ انصرف إلى مع معنى العِظَمِ والخطورةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِزْيُ والذّلُّ:

الخِزْيُ ذلٌّ مع افتضاحٍ، وقيل هو الانقماعُ لقُبحِ الفعْلِ، والخزايةُ: الاسْتحياءُ؛ لأنه انْقماعٌ عنِ الشّيءِ لِما فيه منَ العيْبِ، وهو: الإقَامَةُ على السُّوءِ"[2].

الخِزْيُ مَهانةٌ مع انْقِماعٍ وافْتِضاحٍ، والذّلُّ خضوع واستكانة

ويَحْملُ الخِزْي معنَى المَهانةِ والانكسارِ والانْقِماعِ، أمّا الذُّلُّ: فأصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخضوعِ، والاسْتكانةِ، واللّينِ، والانقيادِ كرهًا، وهو ضدُّ العزّ[3].

وبهذا يتبينُّ أنّ دلالةَ الخِزْي أقوَى في الذّمِّ، وأشدُّ في العقوبةِ؛ ولأجل ذلك اصْطُفيَ في الآيةِ الكريمةِ زيادةً في ذمِّ من يُحادِدِ اللّه ورسولَه؛ ولِيُناسبَ شنيعَ فعْلِهم.

(1) أحمد سعيد، من لطائف الملاءمة بين المقال والمقام في وصْفِي العذاب بالمهين والأليم في الذّكر الحكيم، مجلة قطاع كليات اللغة، العدد الثاني، 2008، ص: 1045.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(3) ابن فارس مقاييس اللّغة: (ذل)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»